

## السبع المثاني

قال الله تعالى «ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم» (الحجر ٨٧) . وقال جل شأنه : «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثْنِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ» (الزمر ٢٣) . تباينت أقوال المفسرين في المقصود بالسبع المثاني ، فقال القرطبي : إن أبا هريرة يروي حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول فيه : «الحمد لله أم القرآن وأم الكتب والسبع المثاني» (يقصد بقوله «الحمد لله» فاتحة الكتاب كما يري النسفي بعد قليل).

ويروي القرطبي أيضا قول ابن عباس عن السبع المثاني : هي السبع الطوال : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة معا ، لأنه ليس بينهما تسمية (أي بسملة) . وأنكر قوم هذا واعتراضوا بالآية المذكورة في أول الكلام ، لأنها أنزلت بمكة ولم ينزل من الطوال شيء إذ ذاك . وقال آخرون إن المثاني هي القرآن كله ، لقوله تعالى في سورة الزمر : «كتابا متشابها مثاني» وقيل له (أي للقرآن) مثاني لأن الأنبياء والقصص تليت فيه . وقيل إن المراد بالسبع المثاني أقسام القرآن من الأمر والنهي والتبشير والإنذار وضرب الأمثال وتعدد نعم وأنبياء قرون . ثم يقول القرطبي : «وقد قدمنا في الفاتحة أنه ليس في تسميتها بالمثاني ما يمنع من تسمية غيرها بذلك . إلا أنه إذا ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم وثبت عنه في شيء لا يحتمل التأويل كان الوقوف عنده» . ولم يأت في تفسير آية الزمر بما يعارض ما قاله القرطبي هنا .

ويري النسفي في معني لفظ «مثاني» أنه جمع مثني بمعنى مَرْدَد ومكرر إشارة لما ثني من قصصه وأنبيائه وأحكامه وأوامره ونواهيهِ ووَعْدِهِ ووَعِيدِهِ ومواعظه . ويرى أن المقصود في سورة الحجر فاتحة الكتاب . وأن اللفظ مأخوذ من التثنية وهي التكرار : لأن الفاتحة عما يتكرر في الصلاة . أو مأخوذ من الثناء لاشتغال سورة الفاتحة علي ما هو ثناء علي الله .

أما أبو حيان فيقول في البحر المحيط . «المثاني مثناة ، والمثني من كل شيء يثنى أي يجعل اثنين من قولك ثنيت الشيء ثنيا أي عطفته وضممت إليه آخر . ومنه يقال لركبتي الدابة ومرفقيه «مثاني» لأنه يثنى بالفخذ والعضد . ومثاني الوادي معاطفه ، فتقول سبعا من المثاني مفهوم سبعة أشياء من جنس الأشياء التي تثني وهذا مجمل ولا سبيل إلي تعيينه إلا بدليل منفصل».

نخرج من هذا الخلاف في الرأي بعدد من المعاني المقترحة للفظ المثاني علي النحو التالي :

١ - المعني الأول يشرح المقصود بالمثاني في ضوء العدد المذكور في الحديث الشريف ، فيجعل السبع المثاني فاتحة الكتاب التي تشتمل علي سبع آيات أولها البسملة ، ويسكت عما عطف علي السبع وهو القرآن العظيم .

٢ - التفسير الثاني يجمع بين مفهومي العدد والمعدود ويقرر أن المقصود هو السور السبع الطوال ، وعندما يلاحظ أن السورة السابعة وهي (الأنفال) لاتعد بين السور الطوال ضم إليها التوبة لأنها لم تتقدمها البسملة ، وعدهما معا سورة واحدة جعلها السابعة .

٣ - التفسير الثالث يجعل المقصود هو القرآن كله أخذا بقوله تعالى «كتابا متشابهاً مثاني» ويسكت عن دلالة العدد «سبعاً» .

٤ - ورابع التفاسير يتناول ما يسميه «أقسام القرآن» ، يقصد أغراض النص القرآني من أمر ونهي وتبشير وإنذار وأمثال الخ ، وبذلك يشير إلي القرآن كله دون إشارة إلي العدد (سبعة) .

٥ - ويرى صاحب التفسير الخامس أن «المثاني» مأخوذة من التثنية وهي التكرار ، وأن الفاتحة تتصل بالتكرار من جهتين : أنها قراعتها في الصلوات وأنها تشتمل علي تكرار ما يفيد الثناء علي الله .

٦ - أما التفسير السادس فيري أن «المثاني» جمع مثناة ، والمثني من كل شيء يثنى أي جعل اثنين من قولك تثنيته الشيء ثنيا أي عطفه وضمنت إليه آخر . فالسبع المثاني معناها سبعة أشياء من جنس ما يثنى .

ومن ماثور القول بين مفسري القرآن الكريم أن «القرآن يفسر بعضه بعضا» فإذا أراد المرء أن يفهم مقاصد القرآن فعليه أن ينظر إلي التناسل بين نصوصه لأن ما يقوم من علاقة بين هذه النصوص من شأنه أن يكشف بواسطة ما بنا عن اتفاق عن مقاصد النص الحاضر في ضوء النص الآخر». ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً» (النساء - ٨٢) . وإذا رجعنا إلي ما تقدم من إشارة إلي آيتي الحجر ٨٧ والزمر ٢٣ وجدنا القرآن مذكورا في كليهما إما بالاسم (القرآن العظيم) وإما بالنوصف (كتابا متشابها) ، وأن العدد (سبعاً من المثاني) ذكر في آية الحجر دون آية الزمر . أما الوصف بالمثاني فقد ورد في كلتا الآيتين .

دعنا إذن نستعن بمبدأ التناسل في فهم المقصود بالمثاني وهي كما قال النسفي جمع مثني . يقول الله سبحانه وتعالى : «فانحكوا ما صاب لكم من النساء مثني وثلاث ورباع» (النساء - ٣) ، أي فليتخذ كل منكم امرأتين يكون نكاحهما علي طريقة «المثاني» أي كونهما (أثنتين اثنتين) . فإذا وظفنا فكرة المثنوية هذه في محاولة فهمنا للنص الذي بين أيدينا كان عن المطلوب أن ننظر إلي كيفية وجودها في النص القرآني . دعنا أولا نبحت عن معني المثاني منسوباً إلي القرآن في مجمله ثم ننظر إليه بعد ذلك في السبع المثاني بخصوصها .

ينبغي لهذه المثاني في القرآن كله أن تكون أزواجاً من المفاهيم بين عنصرى كل زوج منها صلة خاصة إيجابية أو سلبية . ويمكن أن نصرب مثلاً لهذه الأزواج من المفاهيم علي النحو التالي :

|                |                 |              |
|----------------|-----------------|--------------|
| الإنس والجن    | السماء والأرض   | الجنة والنار |
| الإيمان والكفر | الطاعة والمعصية | الخير والشر  |

|                    |                 |                |
|--------------------|-----------------|----------------|
| الصدق والكذب       | الإخلاص والنفاق | الوفاء والغدر  |
| النور والظلام      | الحياة والموت   | الدنيا والآخرة |
| أصحاب اليمين       |                 |                |
| وأصحاب الشمال      | الشكر والجحود   | السلم والحرب   |
| البيع والشراء      | القول والفعل    | الله والعباد   |
| الألوهية والربوبية |                 |                |

وهلم جرا مما يخضع لتعليم القرآن والبشارة والإنذار بما يكون في الحياة الدنيا والآخرة من قول أو عمل ، مثل :

« وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ » (الأنعام ١٢٨) .

« تَسْبَحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ » (الإسراء ٤٤) .

«إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ» (المدثر ٣٨-٤٠) .

« وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ » (آل عمران ١٤٥) .

« فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ » (الكهف ٢٩) .

« فَلَا تَطْعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا » (الفرقان ٥٢) .

« قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى » (البقرة ٢٦٣) .

« قَالَ سَتَنْظُرُونَ أَصَدَقْتُ أَمْ كُنْتُ مِنَ الْكَاذِبِينَ » (النمل ٢٧) .

« يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِبْ مِنْ نُورِكُمْ » (الحديد ١٣) .

« كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا » (التحريم ١٠) .

« فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ » (البقرة ١٧) .

« كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » (البقرة ٧٣).

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَرَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » (النساء ١٣٤) .

« فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (الزّاقة ٨ - ٩) .

« فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ » (البقرة ١٥٢) .

« فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلْوَكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ » (النساء ٩١) .

« وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا » (البقرة ٢٧٥) .

« لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » (الصف ٢) .

« وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » (الذاريات ٥٦) .

وما كل ذلك إلا نماذج من المثاني وأمثلة من الشواهد القرآنية توخينا فيها أن تكون قصيرة قدر الإمكان تجنباً للإطالة . وهذا الذي مضى شرح لما يفهمه المرء من معني وجود المثاني في القرآن العظيم كله وهو الكتاب المتشابه المشتمل علي هذه المثاني .

دعنا ننظر الآن في المقصود بالسبع المثاني التي اختصت بها سورة الفاتحة ، وليكن الحديث الذي رواه القرعبي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلي الله عليه وسلم بقوله : « الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني » موضع القبول لقوله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (الحشر ٧) ، مع العلم بأن عبارة « الحمد لله » هي أول الفاتحة بعد البسملة . ومن ثم تكون هي أول فاتحة الكتاب . فما المثاني التي اشتملت عليها الفاتحة ؟ وكيف تحققت المثوية بين ما تشير إليه من مقاصد ؟ قال قوم إن الفاتحة سبع آيات أولها البسملة ، أي أن السبع المثاني هي الآيات السبع في سورة الفاتحة ، وأن البسملة هي إحدي هذه المثاني وعندما نقرأ هذا الكلام نتساءل عن السبب الذي جعل البسملة في

رأيه إحدي المثاني في الفاتحة فعدّها من آياتها ولم يجعلها كذلك في بقية سور القرآن الكريم . ويكاد هذا التساؤل يحملنا علي رفض أن تكون سورة الفاتحة مشتملة علي السبع المثاني حتي نتذكر الحديث الشريف الذي دعانا منذ قليل إلي قبول كونها هي المقصودة . عندئذ نبدأ التماس طريق آخر نصل من خلاله إلي ما في سورة الفاتحة من المثاني ، ثم ما الذي يرشح هذه العناصر من سورة الفاتحة لقبول كونها من المثاني ، وكيف يتحقق فيها العدد سبعة بعد الشك في أن البسلة ليست من آيات الفاتحة .

## ١ - لفظ الجلالة :

إن أول ما نصادفه عند قراءة الفاتحة هو « الحمد لله » ، ولفظ الجلالة من بين الأسماء الحسني هو الوحيد المرتجل أي الذي لم ينقل إلي العلمية بعد أن كان مصدراً أو صفة كغيره من الأسماء الحسني . فهو اسم الله الأعظم الذي يدل علي الألوهية كما في «الله لا إله إلا هو» (البقرة ٢٥٥) ، كما يدل في الوقت ذاته علي الربوبية كما في «ذِكْرُكُمْ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ» (الأنعام ١٠٢) . وإذا كان لفظ الجلالة بكونه الاسم الأعظم دالا علي الألوهية والربوبية في وقت معا فلا بد من أن ينطوي علي مثنوية في معناه وإن كان مفرداً في لفظه . وهذا الأفراد في اللفظ يجعله واحداً فقط من ألفاظ المثنويات السبع . كما أن دلالة لفظ الجلالة علي الألوهية والربوبية في وقت معا يتجلي في صحة وصفه في البسلة بلفظي «الرحمن» و «الرحيم» مع إختلاف معني كل منهما عن معني الآخر من حيث الدلالة علي هذين المفهومين (الألوهية والربوبية) كما سنري بعد قليل إن شاء الله . والدليل علي أن لفظ الجلالة يدل علي هذين المعنيين (الألوهية والربوبية) قوله تعالى: «وَقَالَ اللهُ لَا تَخَذُوا إِلَهِينَ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإَيَّيَّاهُ هَبُونِ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَأَصْبَأُ أَفْغَيْرَ اللهُ تَتَّقُونَ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهُ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ» (النحل ٥١ - ٥٣) . فالله سبحانه في أول الآية إله واحد مستحق للعبادة وفي آخرها رب منعم ومستعان . وإسمه واحد لم يتغير في الحالتين .

وعلينا بعد ذلك أن نلقي مزيداً من الضوء علي الاسم . قلنا قبل ذلك إن أول ما نصادفه من سورة الفاتحة هو «الحمد لله» ، فما المقصود بالحمد وما الفرق بينه وبين الشكر ؟ المعروف أن اللغة العربية ربما أعادت ترتيب أصول إحدى الكلمات وابتقت علي المعني دون تغيير ، وهذا ما يسميه ابن جني في الخصائص «الاشتقاق الأكبر» . وفي رأبي أن الحمد والمدح من قبيل هذا الاشتقاق . ووجه إنتمائهما إلي أصل واحد أن الحمد كالمدح مبعثة الاحترام دون أن يكون لدي المادح إحساس بما سوي استحقاق الممدوح ، وكذلك استحقاق المحمود للحمد ، ويمكن أن يقال مثل ذلك في لفظي «الرب» و«البر» بفتح الباء . أما الشكر فعرفان بالفضل واعتراف بالنعمة . ولذلك يصح أن يقال : «اللهم لك الحمد بما تعاليت ولك الشكر بما أوليت» نحمدك بجميع محاسنك ما علمنا منها وما لم نعلم ونشكرك بجميع نعمك ما علمنا منها وما لم نعلم وإذا كان رب الجلال كما سبق أن ذكرنا مستحقاً للحمد بما تعالي وللشكر بما أنعم فإن لفظ الجلالة من شأنه أن يقبل الأمرين معا . فإذا قال العبد يا الله فقد نادي المستحق للحمد وللشكر معا . وهو الذي يعاقب المذنب ويثيب المحسن : «قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً» (الأحزاب ١٧) . هذه أولي المثاني السبع ، ويمكن بيانها كما يلي :

| الله       |           |
|------------|-----------|
| ربه مستعان | إله معبود |

ولكل من الألوهية والربوبية بعد ذلك ثلاث مثان ، وكل ذلك مما اشتملت عليه فاتحة الكتاب . وبيان ذلك كما يلي :

| مثنائي الألوهية                       | مثنائي الربوبية                      |
|---------------------------------------|--------------------------------------|
| مالك يوم الدين<br>الرحمن<br>إياك نعبد | رب العالمين<br>الرحيم<br>إياك نستعين |

وفيما يلي بيان بالأسس التي دعت إلي هذا الفهم وذلك من جهتين :  
اختيار نص فاتحة الكتاب بالذات .

بيان سبب اختيار المثنائي الست التي تبلغ سبعا بإضافة لفظ الجلالة .

## ٢ - مالك يوم الدين :

هذه المثناة تقف في مجال الألوهية بإزاء مثناة «رب العالمين» التي تنتمي إلي الربوبية ، وذلك لما بينهما من اختلاف المواقف بين الدنيا والآخرة ، ومن اختلاف الوظيفة بين مالك أو ملك وبين رعاية رب أو عون مستعان .  
فمالك يوم الدين صفة إلهية ، لأنها تشير إلي معني العبادة التي تأتي مثبوتها يوم الدين ، ولأنها تتصل بما في ذلك اليوم من أيام الآخرة من ثواب أو عقاب . وهناك قراءة أخرى يتحول بها لفظ «مالك» إلي ملك» «له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» (التغابن - ١) ، وهو المهيمن الذي يدخل عباده الجنة إن شاء والنار إن أراد . ولا يمكن أن تكون هناك شفاعة في هذا الموقف إلا بإذن الله . ثم إنه في هذا اليوم «إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة إذا رُجَّت الأرض رجاً وبُست الجبال بساً فكانت هباءً

مُتَبِّئًا وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا  
أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ  
(الواقعة ١ - ١٢) . كل ذلك بإرادة مالك يوم الدين ، يوم يحشر الله إليه  
وقدأ ويسوق المجرمين إلى جهنم وردا .

## ٢ - رب العالمين :

وفي مقابل مثناة «مالك يوم الدين» تقف مثناة «رب العالمين» . والرب  
هو الراعي وهو المستعان كما سنري فيما بعد . وفي الحديث الشريف  
«كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» . والراعي يمنح الرعاية للرعية كما  
يمنح الرب الولاية والكفالة . وقد قال يوسف عليه السلام حين دعي إلى  
خيانة العزيز في أهله : «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» (يوسف ٢٣) ، فجعل العزيز  
ربه أي كافله الذي رباه وأحسن رعايته منذ طفولته وإلى شرح شبابه . وفي  
إطار هذا الفهم قال يوسف أيضاً لأحد الفتيتين عند خروج الفتى من  
السجن: « أذكرني عند ربك » (يوسف ٢٤) وفي سورة آل عمران نجد «أولي  
الآلِباب» يدعون ربهم بذكر لفظ الرب فيقولون (آل عمران ١٩١ - ١٩٤) :

«رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» (١٩١) .

«رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ» (١٩٢) .

«رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا» (١٩٣) .

«رَبَّنَا فَاعْفُ رَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ» (١٩٣) .

«رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١٩٤) .

وقد استعمل أولو الآلِباب هنا لفظ «ربنا» وكان يمكنهم أن يقولوا  
«اللهم» في كل موضع ذكر فيه الرب في هذه الآيات (لأن لفظ الجلالة كما  
قلنا من قبل صالح للدلالة علي المعنيين في وقت معا) . ويتضح من ذلك أن  
الربوبية صفة المستعان كما كانت الألوهية صفة المعبود .

في لفظ «الرحمن» دلالة علي الألوهية كما يؤخذ من مبدأ «القرآن يفسر بعضه بعضاً» وهو المبدأ الذي سمي في الدراسات الحديثة «التناسق» . ومع أن مفسري القرآن الكريم هم الذين صاغوا هذا المبدأ في صورته التراثية لم يحسنوا استعماله في فهم لفظ «الرحمن» حتي في بعض التفاسير التي أعلنت عن نفسها أنها تفسر القرآن بالقرآن ، مثل تفسير «أضواء البيان» للشنقيطي .

رأي بعض المفسرين أن «الرحمن» يتفق في المعني مع «الرحيم» علي نحو ما يتفق لفظاً «ندمان» و«نديم» . وفوق آخرون بينهما في المعني إن رَأوا في «الرحمن» مبالغة ليست في «الرحيم» ، أو أن الرحمن يرحم الخلق جميعاً علي حين يرحم الرحيم المؤمنين دون غيرهم . واكتفي البعض بملاحظة أن «الرحمن» يسمي به الله وأن «الرحيم» يوصف به غير الله أيضا .

أما ما نراه وجيهاً في تحديد معني «الرحمن» فيؤخذ من قوله تعالى : «وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلَنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ» (الزخرف ٤٥) . وإن أصدق ما يحدد معناه آية الكرسي التي تقول : «الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم» (البقرة ٢٥٥) ومن تحريف معني «الرحمن» أن مسيلمة الكذاب كان يسمي نفسه (رحمن اليمامة) أي أنه جعل نفسه قيوماً علي الإقليم المذكور .

وإذا نظرنا إلي الآيات القرآنية الكريمة التي يرد فيها لفظ «الرحمن» فإننا سنجد سياق النص وسياق الموقف كليهما يؤديان إلي أن للرحمن دلالة علي الألوهية تضعه بإزاء لفظ الرحيم ودلالته علي الربوبية . وإلي القاريء الكريم جملة هذه الآيات كما ترد مفرقة في سور القرآن الكريم : «قُلْ ادْعُوا

اللَّهُ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ  
بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا « (الإسراء ١١٠) ، الرحمن تجب عبادته مثله كمثله  
دلالة لفظ الجلاله (الله) .

١ - « قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا » (مريم ١٨) . لم تستعذ  
بالرحيم .

٢ - « يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا » (مريم ٤٤)  
الطاعة واجبة للرحمن .

٣ - « إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ » (مريم ٤٥) . الرحمن  
يعذب من عصاء وإن اشتق اسمه من الأصول الثلاثة للرحمة .

٤ - « قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا » (مريم ٧٥) . الرحمن  
يمهل الضالين قبل تعذيبهم .

٥ - « يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا » . (مريم ٨٥) . يحشر المتقون  
إلى الرحمن .

٦ - « لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا » (مريم ٨٧) .

٧ - « وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا » (مريم ٩٢) . تعالى الله عن ذلك .

٨ - « إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا » (مريم ٩٣) .

للرحمن عباد خاضعون له ، ولا ينسب العباد إلي غير الرحمن (فيما  
عدا ما عبد من أسماء الأعلام) .

٩ - « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا » (مريم  
٩٦) . الرحمن يملك الثواب والعقاب .

١٠ - « الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى » (طه ٥) . للرحمن عرش وله هيمنة .

١١ - « وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا » ( طه ١٠٨ ) .

١٢ - « يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا » ( طه ١٠٩ ) .

١٣ - « قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ » ( الأنبياء ٤٢ ) . لا يمكن لأحد أن يكلأ أحدا من بأس الرحمن .

١٤ - « الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ » ( الفرقان ٢٦ ) . في الفاتحة : « مالك يوم الدين » ومنذ قليل جاء ذكر عرشه .

١٥ - « وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا » ( الفرقان ٦٣ ) انظر رقم ٨ .

١٦ - « إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ » ( يس ١١ ) . الرحمن يخشي غضبه .

١٧ - « إِنْ يَرِدَْنَّ الرَّحْمَنُ بَصُرًا لَا تَغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا » ( يس ٢٣ ) انظر ١٣ .

١٨ - « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا » ( الزخرف ١٦ ) انظر ٧ .

١٩ - « وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ » ( الزخرف ٢٠ ) .

٢٠ - « مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ » ( الملك ٣ ) .

٢١ - « أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يَمَسُّهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ » ( الملك ١٩ ) .

٢٢ - « يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا » ( النبأ ٣٨ ) .

ومع ذلك قد يأتي «الرحمن» خبرا عن لفظ «رب» في موقف يتطلب ذلك، وقد يرد صفة للرب مع وجود خبر مناسب للربوبية . فمن الأول ما قاله هارون لبني إسرائيل عندما عبدوا العجل من دون الله : « يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ

وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي» (طه ٩٠) أي إن ربكم إله قيوم يهيمن علي الخلق كله ، فكيف تعبدون من بونه عجلاً؟ ومن الثاني قوله تعالى : «وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ» (الأنبياء ١١٢) . أي وربنا المهيم المعبود هو المستعان علي ماتقولون . فوصف المبتدأ بأنه «الرحمن» أشار إلي نوع الاستعانة التي ذكرت في الخبر ، أي أن الخبر مناسب للمبتدأ وموصوف بما يجعل الاستعانة به موضع ثقة ، ولاسيما بعد قوله تعالى : «قُلْ إِنَّمَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أُدْرِيَ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ وَإِنْ أُدْرِيَ لَعَلَّهُ فَتَنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ...» (الأنبياء ١٠٨ - ١١٢) . فلوصف المبتدأ بلفظ «الرحمن» ما يبرره . وقد يرد «الرحمن» في موضع يصلح لكل من الاسمين لأن السياق يجعله كذلك ، كما في قوله تعالى : «قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا» (الملك ٢٩) ، فالإيمان بالآله والتوكل علي الرب .

#### ٥ - الرحيم :

والرحيم من مثاني الربوبية كما تشهد آيات القرآن أيضا . فإذا كانت الربوبية رعاية للعباد وإنعاما عليهم ورأفة بهم وعطاء يستحق الشكر كما استحق الرحمن الحمد فإن هذا الاسم من أسماء الله سبحانه يأتي مقترنا بما يحدد له هذه الظلال المذكورة من معاني الربوبية : وهي الرعاية والإنعام والرأفة ... إلخ . فالرحيم ثواب ورعوف وغفور وودود ومستعان وبر وعزيز الخ كما تشهد الآيات التالية :

١ - «فَتَلَقَّى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» (البقرة ٣٧) .

٢ - «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّؤُوفٌ رَّحِيمٌ» (البقرة ١٤٣) .

٣ - «فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» (البقرة ١٩٢) .

٤ - «وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ» (هود ٩٠).

٥ - «سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ» (يس ٥٨) .

٦ - «إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ» (الطور ٢٨) .

٧ - «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» (الشعراء ٩) .

بما تقدم يتضح أن لفظي «الرحمن» و «الرحيم» يختلفان في المعنى وإن كانا فرعين في دلالتهما علي لفظ الجلالة ، فقولنا : بسم الله الرحمن الرحيم في قوة قولنا : بسم الله الإله الرب ، أي بسم الله المعبود المستعان ( أخذنا من قوله : «إياك نعبد وإياك نستعين» . وهكذا يبقى من المثاني السبع اثنتان إحداهما يخاطب بها الإله ، وهي «إياك نعبد» والأخري يخاطب بها الرب ، وهي «إياك نستعين» . وعلي أي حال : «الدعاء مخ العبادة»، كما يروي عن النبي صلي الله عليه وسلم .

#### ٦ - إياك نعبد :

يقول الله تعالى لموسي عليه السلام : «إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي» (طه ١٤) . وهذا الأمر بالعبادة تقدمه ذكر الألوهية لتكون مقدمة لطلب العبادة كما يستفاد من الفاء في «فاعبدني» ؛ أي لأنه «لا إله إلا أنا» . وإنما كان القول بأن العبادة إنما تتحقق بإقامة الصلاة لذكر الله سبحانه وتعالى لأن الصلاة هي الفريضة الوحيدة التي لا رخصة بتركها . أما الزكاة والحج والصوم ففيها رخصة لمن لا يستطيع . وإذا نظرنا إلي قوله سبحانه : «إياك نعبد» وجدنا تقديم المفعول «إياك» مفيداً للدلالة علي معني : (لامعبود إلا أنت) . فالعبادة مقصورة علي الله جل جلاله .

#### ٧ - إياك نستعين :

ويقابل العبادة ودلالاتها علي معني الألوهية أن الاستعانة تدل علي أن المستعان رب ينعم علي عباده . فما أكثر ما يبدأ الدعاء بثناء الرب كما رأينا عند الكلام عن مثناة «رب العالمين» . وقد يبدأ الدعاء بعبارة «اللهم»

لأن لفظ الجلالة كما سبق أن ذكرنا يتضمن مفهومي الألوهية والربوبية في وقت معا . وواضح أن الدعاء استعانة بالله رب العالمين ، وأن الذي يقرأ الفاتحة في الصلاة إنما يدعوه أثناء العبادة ، ولأصلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب . أما موضوع الاستعانة المطلوبة في قراءة الفاتحة فيبدو في قوله تعالى بعد ما سبق : «اهدنا الصراط المستقيم ... الخ » . ولقد سبقت الإشارة إلى الفرق بين الحمد والشكر ، ونود أن نشير إلى فرق مشابه لذلك بين الجلال والإكرام . فينسب الحمد والجلال إلى الإله المعبود ، ويتجه الشكر والإكرام إلى الرب المنعم سبحانه وتعالى .

هكذا تكون المثاني (وهي الألفاظ التي سبق ذكرها) سبعة ولكن المثنيات اربع بيانها كما يلي :

- ١ - مثنوية بين الألوهية والربوبية تكمن في نطق الجلالة (الله) .
  - ٢ - ومثنوية بين مالك يوم الدين من جهة ورب العالمين من جهة أخرى.
  - ٣ - وثالثة بين الرحمن والرحيم .
  - ٤ - أما الرابعة فبين «إياك نعبد» و «إياك نستعين».
- أرجو أن يكون اجتهادي صائباً وأسأل الله التوفيق .